

**علاقة الملك العادل محمد
بأبناء صلاح الدين بعد وفاته
(٥٨٩ - ٥٩٦ هـ / ١١٩٣ - ١٢٠٠ م)**

The relationship of King Al-Adil Muhammad
with Saladin's sons after his death
(589-596 AH/ 1193-1200 AD)

م.د. علاء حامد أحمد محمود الزوبعي
وزارة التربية / مديرية تربية بغداد الكرخ الأولى

M.D. Alaa Hamed Ahmed Mahmoud Al-Zubaie
Ministry of Education
Baghdad Al- Karkh First Directorate of Education
dralaa37@yahoo.com
07815229929

الملخص

وصفت العلاقة بين الملك العادل وأبناء السلطان صلاح الدين بالعلاقة القائمة على أساس المصالح السياسية واسترجاع الحقوق، إذ وجد الملك العادل بعد وفاة صلاح الدين ان نصيبه من ارث الدولة الايوبية لم يكن متناسباً مع الدور الكبير الذي قدمه في خدمة الدولة مع أخيه صلاح الدين، وقد عمل الملك العادل جاهداً في استحصال هذا الحق وتوحيد الدولة تحت حكمه، باعتباره الوريث الشرعي للدولة، واستغل من الملك العادل فرصة استنجد الملك الأفضل به على أخيه الملك العزيز، كما وجد في سوء سياسة الملك الأفضل الفرصة المناسبة للتدخل في شؤون أبناء أخيه، وقد عرف عن الملك العادل انه يمتاز بالشجاعة والمكر والدهاء، وأخذ يبذر بذور التفرقة والشقاق بين أبناء أخيه من جهة، ومن جهة أخرى بين أبناء أخيه وامرائهم من الصلاحية والاسدية، لتحقيق أهدافه التي سعى من اجلها، وهي السيطرة على جميع أملاك أبناء أخيه وتوحيد الدولة الايوبية تحت حكمه.

كلمات مفتاحية: علاقة، الملك العزيز، الملك العادل، صلاح الدين.

Abstract:

The relationship between King al-Adil and the sons of Sultan Saladin has been described as one based on political interests and the restoration of rights. After Saladin's death, King al-Adil found that his share of the Ayyubid inheritance was disproportionate to the significant role he had played in serving the state alongside his brother Saladin. King al-Adil worked hard to secure this right and unify the state under his rule, as the legitimate heir to the throne. He exploited King al-Adil's appeal to King al-Afdal for help against his brother, King al-Aziz. He also found in King al-Afdal's poor policy an opportune moment to interfere in the affairs of his nephews. King al-Adil was known for his courage, cunning, and shrewdness, and began sowing the seeds of division and discord among his nephews, on the one hand, and between his nephews and their emirs, the Saladins and Asadis, on the other. This was to achieve his goals, which included controlling all of his nephews' possessions and unifying the Ayyubid state under his rule.

Keywords: Relationship, King al-Aziz, King al-Adil, Saladin.

المقدمة

امتازت العلاقة التي كانت قائمة بين الملك العادل وأبناء أخيه السلطان صلاح الدين على أنها علاقة استرجاع الحقوق التي فقدت، إذ وجد الملك العادل أنه ظلم من قبل أخيه السلطان صلاح الدين ولم يوفه حقه وهو الذي أفنى معظم حياته في خدمته، وقد حاول الملك العادل إلى استحصال هذه الحقوق بعد وفاة صلاح الدين، واخذ يعمل على التفرقة بين الأخوة، فوجد من استنجد الملك الأفضل وسيلة للتدخل في شؤونهم، كما استغل احترامهم غاية لتحقيق أهدافه في السيطرة على أملاكهم، واقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مجموعة مفردات: تناولت المفردة الأولى نصرة أبناء صلاح الدين للملك العادل، وتناولت المفردة الثانية موقف الملك العادل من الصراع بين أبناء صلاح الدين، فيما تناولت الثالثة دور الملك العادل في انتزاع دمشق من الملك الأفضل، أما الرابعة فتناولت محاولة الملك الأفضل استرجاع دمشق من الملك العادل، وقد تناولت في الخامسة انتزاع الملك العادل حكم مصر من الملك الأفضل.

أولاً: نصرة أبناء صلاح الدين للملك العادل.

بعد وفاة السلطان صلاح الدين استقر كل من أبنائه وأخوته في ملكه، فكانت مدينة دمشق والبلاد المنسوبة إليها للملك الأفضل والذي كان مع والده عند وفاته في دمشق، أما الديار المصرية وما نسب إليها للملك العزيز عثمان، وبحلب وبلادها الملك الظاهر غياث الدين غازي، وباليمن عمهم الملك العزيز سيف الدين طغتكين، أما البلاد الشرقية وما جاورها من بلاد فكانت تحت حكم الملك العادل محمد^(١).

وكان الملك العادل يوم توفي السلطان صلاح الدين بالكرك، وعندما وصل إليه خبر وفاة أخيه سار إلى دمشق للقيام بواجب العزاء ومعزياً لابنه للملك الأفضل، فأقام عند الملك الأفضل في دمشق أياماً، ثم ارتحل إلى بلاده التي أعطاها إياها السلطان صلاح الدين^(٢)، فثار عليه عزالدين

(١) ابن الاثير، ابي الحسن عزالدين علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، راجعه وقدم له واتم شروحه: سمير شمس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٩م، ج ١٣، ص ٤٨؛ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن نصرالله بن سالم (ت: ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيبان، د-ت، ج ٣، ص ٣.

(٢) سبط ابن الجوزي، ابي المظفر شمس الدين يوسف بن قز اوغلي بن عبدالله (ت: ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م)، مرآة الزمان

صاحب الموصل واخوه عماد الدين صاحب سنجار^(١)، وخرج عز الدين من الموصل والتقى في نصيبين^(٢) لأخذ بلاد الجزيرة من الملك العادل، وارسلوا اليه يقولون: (تخرج من البلاد وتعيدها اليها)، وكان حينها في حران، فاستنجد الملك العادل بأبناء اخيه^(٣)، فارسل الى الملك العزيز صاحب مصر والملك الأفضل صاحب دمشق والملك الظاهر وجميع امراء البيت الايوبي، فبادروا الى انجاده بالعساكر فوصل اليه الملك المنصور صاحب حماه، كما وصلت اليه جيوش حمص ودمشق وبعلبك مع الملك الظاهر خضر^(٤)، وعند وصول هذه الجيوش الى الملك العادل كان عزالدين واخوه عماد الدين قد ساروا الى تل موزن^(٥)، ثم تقدم الى دنيسر، وارسل الى الملك العادل طالباً منه الصلح على ان يكون الملك العادل نائباً له في بلاد الجزيرة، لكن الملك العادل رفض، واثناء ذلك ازداد مرض الاسهال بعزالدين فاضطر العودة الى الموصل^(٦).

ثانياً: موقف الملك العادل من الصراع بين أبناء صلاح الدين.

بعد ان استقر الملك الأفضل في حكم دمشق عين ضياء الدين الجزري وزيراً فأساء السيرة وخلق فتنة بين الجند وبعض اعيان دمشق والملك الأفضل، فخرج عدد من اعيان دمشق الى مصر فالتقاهم الملك العزيز وكرمهم^(٧)، فقوي بهم وأشاروا عليه المسير الى بلاد الشام واخذ مدينة دمشق من الملك الأفضل نور الدين علي، فاعجب برأيهم لكن أراد ان يعمل الملك الأفضل ذنباً

في تواريخ الاعيان، تحقيق: إبراهيم الزبيقي، الرسالة العالمية، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م، ج ٢٢، ص ٢٦.
(١) سنجار، مدينة واقعة وسط ديار ربيعة، وهي قرب جبل يسمى سنجار، بها نخيل وليس في الجزيرة بلد به نخيل سوى سنجار. الاصلطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت: ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٧٣.

(٢) نصيبين، مدينة عظيمة من بلاد الجزيرة، واقعة على طريق القوافل من الموصل الى بلاد الشام، وهي كثيرة الأنهار والجنات والبساتين ولها نهر عظيم يقال له الهرماس عليه قناطر من الحجارة قديمة رومية وأهلها قوم من ربيعة من بني تغلب. ياقوت الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج ٥، ص ٢٨٨.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢٢، ص ٢٧؛ ابن واصل مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٨.

(٤) ابن واصل مفرج لكروب، ج ٣، ص ١٨.

(٥) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص ٥.

(٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢٢، ص ٢٧.

(٧) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢٢، ص ٢٨؛ الدواداري، ابي بكر بن عبدالله بن ابيك (ت: ٧٣٦هـ / ١٤٣٢م)، كنز الدرر وجامع الغرر، الدر المطلوب في اخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ج ٧، ص ١٢٤.

يبرر من خلاله اخذ دمشق، فقبل طلب منه مدينة القدس^(١)، ويذكر ابن واصل: ان سبب مسير الملك العزيز الى بلاد الشام بسبب ثغر جبيل^(٢)، وهو من فتوحات صلاح الدين، وكان متولي هذا الثغر رجلاً كردياً متنمساً قد سلم الثغر الى الصليبيين مقابل اموالاً بذلوا له، ولم يستطع الملك الأفضل استعادته، فقالت الامراء للملك العزيز: (توانيت، فطرت البلاد واستولى عليها الفرنج)، فعزم المسير الى الشام^(٣).

كان الملك الأفضل نور الدين علي قد ارسل الى أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان قبل مسيره اليه يساله عن سبب خروجه الى بلاد الشام، لكن الملك العزيز عماد الدين عثمان لم يصرح له ولم يعطيه جواباً^(٤)، فسار الملك العزيز سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م) الى مدينة دمشق واقام عسكره على الكسوة^(٥)، وفرض الحصار على المدينة فقعدت الأنهار ونهبت الثمار وساءت أحوال دمشق^(٦)، فارسل الملك الأفضل الى عمه الملك العادل يستنجد به، فسار الملك العادل الى دمشق ومعه الملك الظاهر صاحب حلب، وناصر الدين محمد صاحب حماة، واسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص واجتمعوا بدمشق، واتفقوا على حفظ مدينة دمشق من الملك العزيز^(٧).

يبدو ان السبب من وراء المساعدة التي قدمها الملك العادل للملك الأفضل في قتال الملك العزيز هو خوفه من الملك العزيز، علماً منه انه ان استولى الملك العزيز على مدينة دمشق اخذ

(١) الدواداري، كنز الدرر، ج٧، ص١٢٤.

(٢) جبيل، بعد الجيم المضمومة باء موحدة مفتوحة، ثم ياء ساكنة تحتها نقطتان من مدن العواصم، وهي قرية من بيروت، مثلثة الشكل يطل قسم منها على البحر ويحيطها سور حصين عالي الارتفاع وحولها النخيل. الهمداني، ناصر خسرو، أبو معين ناصر خسرو (ت: ٤٨١هـ/١٠٨٨م)، سفرنامه، تحقيق: يحيى الخشاب، ط٣، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٨؛ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان (ت: ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، الأماكن او ما اتفق لفظه واُفترق مسماه من الأمكنة، تحقيق: حمد بن محمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٥م، ص١٨٧.

(٣) مفرج الكروب، ج٣، ص٢٦.

(٤) ابن واصل مفرج الكروب، ج٣، ص٢٦.

(٥) الكسوة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. ياقوت الحموي، أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج٤، ص٤٦١.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٣١؛ ابن كثير، ابي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٣م)، البداية والنهاية، تحقيق: عبد بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، ١٤٢٠هـ، ج١٦، ص٦٦٣.

(٧) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٥٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٨؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٢٩.

بلاده جميعها، وهذا يعني انه كان خائف على املاكه وليس دفاعاً عن الملك الأفضل. فلما رأى الملك العزيز اجتماعهم في دمشق علم انه لا يستطيع مقاومتهم، فarsل الى عمه الملك العادل لعقد صلح معه على شروط يقع الاتفاق عليها^(١)، ووقع الصلح واستقرت قواعده على ان يكون بيت المقدس وما جاورها من بلاد فلسطين للملك العزيز، وتبقى دمشق وطبرية وما جاورها من اعمال للملك الأفضل، وان يعطي الملك الأفضل اخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية بالساحل الشامي، فعاد الملك العزيز الى مصر وعاد كل ملك الى بلاده^(٢)، وهو ماكن يبحث عنه الملك العادل في هذا الصراع اذ اصبح المتحكم بين افراد الاسرة الايوبية باعتباره الأكبر سناً.

غير ان هذا الصلح لم يستمر طويلاً ففي سنة (٥٩١هـ / ١١٩٤م) عاد الخلاف من جديد بين الملك العزيز والملك الأفضل، بسبب تحريض الجند للملك العزيز على الملك الأفضل والاستيلاء على دمشق^(٣)، غير ان بعض المصادر ذكرت: انما كان القصد من خروج الملك العزيز الى دمشق هو لإقامة الخطبة والسكة باسمه، وان يكون جميع امراء وملوك بني أيوب تحت حكمه^(٤)، وعندما علم الملك الأفضل ان الملك العزيز عازم على محاصرة دمشق، سار الى صفين حيث عمه الملك العادل واستنجد به على أخيه الملك العزيز، وطلب منه ان يقيم عنده في دمشق خوفاً من أخيه الملك العزيز^(٥)، ثم سار الى أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب واستنجد به ايضاً، وكان الملك العادل قد سار الى دمشق قبل الملك الأفضل خوفاً من ان سبقه الملك العزيز ويدخلها قبله، ثم ان الملك الأفضل كان يثق بعمه الملك العادل فامر نوابه السماح له بدخول القلعة، ثم سار الى أخيه الملك الظاهر صاحب حلب واستنجد به^(٦).

كان الملك الظاهر قد اشترط على أخيه الملك الأفضل وعمه الملك العادل تسليمه تل باشر، وان يكون صاحب حماة وابن المقدم تابعين اليه، مقابل المسير معهم الى دمشق لقتال الملك

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٣١.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٥٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٨.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٣.

(٤) ابن نظيف الحموي، محمد بن علي بن نضيف (ت: ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م)، التاريخ المنصوري: المسمى الكشف والبيان في حوادث الزمان، يعني بنشره وتحقيقه: أبو العبد دودو، مراجعة: عدنان درويش، مطبعة الحجازي، دمشق، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، ص٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٤١.

(٥) الدواداري، كنز الدرر، ج٧، ص١٢٩.

(٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٥٩؛ النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم (ت: ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م)، نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق: نجيب مصطفى، حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ج٢٨، ص٢٩٩.

العزیز، فلما وصلوا دمشق طالب الملك الظاهر عمه الملك العادل الإيفاء بالعهد لكن الملك العادل رفض الأمر الذي أخرج الملك الظاهر، وكتب الملك العزیز وأخبره أنه معه، وحثه على المجيء إلى دمشق، فسار الملك العزیز ونزل الفوار، عندها أدرك الملك العادل أنه لا يمكن الانتصار على الملك العزیز والظاهر، فاطر الملك العادل إلى إيجاد طريقة يمكن من خلالها إضعاف قوة الملك العزیز، فلجأ إلى مراسلة الاسديّة ووعدهم بالأموال والاقطاعات^(١)، فمال الاسديّة إلى الملك العادل والملك الأفضل وساروا ليلاً إلى دمشق خوفاً من الملك العزیز ودخلوا في خدمة الملك العادل والملك الأفضل، ولما أصبح الملك العزیز لم يجد الاسديّة في خيامهم، فقفّل راجعاً إلى مصر^(٢)، واتفق الملك العادل والملك الأفضل وعقدوا الأيمان الموثق بينهما على انتزاع مصر من الملك العزیز، على أن يكون للملك العادل ثلث الديار المصرية وثلثاها للملك الأفضل^(٣)، وأن يسلم الملك الأفضل مدينة دمشق للملك العادل^(٤)، وهنا ظهرت أطماع الملك العادل في أملاك أبناء أخيه السلطان صلاح الدين ولم تكن له نوايا صادقة للم شمل أبناء أخيه، وإنما حاول جاهداً استقطاع بعض أملاكهم وضمها إليه، إذ يذكر ابن الأثير أن الملك الظاهر قال لأخيه الملك الأفضل: (أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد، وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فإنه عمي مثل ما هو عمك، وأنا زوج ابنته، ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أولى به منك. فقال له الأفضل: أنت سيئ الظن في كل أحد، أي مصلحة لعننا في أن يؤذينا؟ ونحن إذا اجتمعت كلمتنا، وسيرنا معه العساكر من عندنا كلنا، ملك من البلاد أكثر من بلادنا، ونربح سوء الذكر)^(٥).

(١) أبي شامة، شهاب الدين عبدالرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت: ٦٦٥هـ/١١٦٩م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، حققه وعلق عليه: إبراهيم الزبيقي، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨/١٩٩٧م، ج٤، ص٤٢١؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٤٤-٤٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٥٩.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٤؛ ابن واصل مفرج الكروب، ج٣، ص٥١.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٥٩.

(٥) الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٦٠؛ الحنبلي، أحمد بن إبراهيم بن نصر الله (ت: ٨٧٦هـ/١٤٧١م)، شفاء القلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م، ص٢٤٢.

ومهما يكن من امر سار الملك العادل والملك الأفضل ومن انظم اليهم من الاسدية والاكراد الى مصر ونزلوا بلبيس^(١) وبها الصلاحية فاراد الملك الأفضل قتالهم فمنعه عمه الملك العادل^(٢)، وسبب ذلك ان الملك العادل عندما رأى اجتماع العساكر على الملك الأفضل خاف ان يأخذ مصر ولا يعطيه دمشق^(٣)، فارسل الى الملك العزيز سراً وطلب منه ان يرسل القاضي الفاضل لقد صلح، وعندما وصل القاضي الفاضل الى الملك العادل والملك الأفضل تقررت قواعد الصلح بينهم، واستقر الامر ان يكون للملك الأفضل القدس وجميع بلاد فلسطين وطبرية والأردن وجميع ما بيده، ويكون للملك العادل اقطاعه القديم وان يقيم بمصر عند الملك العزيز^(٤)، ثم طلب الملك العادل من الاخوين ان يحلف كل منهم للآخر بأيمان على عدم الخروج عن طاعته^(٥)، وحقيقة الامر ان الملك العادل لم يكن صادقاً مع الملك الأفضل لتولية السلطنة في مصر^(٦)، وانما أراد الوصول الى مراده وهو زرع بذور التفرقة وايقاع الخلاف بين الملك العزيز والاسدية وبين الاسدية والصلاحية.

ثالثاً: دور الملك العادل في انتزاع دمشق من الملك الأفضل.

عندما قدم الملك العادل الى مدينة دمشق سنة (٥٩١هـ / ١١٩٤م) نجدةً للملك الأفضل من أخيه الملك العزيز وجد في الملك الأفضل ضعف ورقة، فحدثته نفسه اخذ دمشق واخذ يعمل الحيل والمكايد للوصول الى مقصده^(٧)، ولما اقام الملك العادل بمصر عند الملك العزيز اتفق معه على ان يأخذ مدينة دمشق ويسلمها الى الملك العادل ويكون نائباً عنه بها، وتكون الخطبة والسكة للملك العزيز في جميع الممالك الايوبية، ويكون هو السلطان مكان ابية الناصر صلاح الدين^(٨)، وقد وجد الملك العادل من سوء تدبير الوزير ضياء الدين ابن الاثير وزير الملك الأفضل

(١) بلبيس، مدينة واقعة شمالي شرقي مصر، مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام. البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز بن محمد (ت: ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م، ج٢، ٦٢١؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٧٩.

(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٤؛ أبو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ج٣، ص٩١.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٥٩.

(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٥٩؛ ابي شامة، الروضتين، ج٤، ص٤٢٧.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٥٤.

(٦) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٤.

(٧) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٥٦.

(٨) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص٥٧؛ أبو الفداء، المختصر في اخبار البشر، ج٣، ص٩٢.

فرصة لانتزاع مدينة دمشق^(١).

بعد ان تم الاتفاق بين الملك العادل والملك العزيز تجهز الملك العادل وخرج من القاهرة سنة (٥٩٢هـ / ١١٩٥م) ونزل بركة الجب^(٢)، وخرج خلفه الملك العزيز للمقام عنده في تلك المنزلة الى حين توديعه^(٣)، وعندما وصل الملك العزيز الى بركة الجب ارسل الى أخيه الملك الأفضل طالباً بان يخطب له ويضرب السكة باسمه، لكن الملك الأفضل رفض^(٤)، وعلى الرغم من اختلاف العساكر فيما بينها الا انها تجتمع مع الملك العزيز، ولم يكن الملك العادل راغباً بمسير الملك العزيز معه الى دمشق لتحقيق طموحاته في الاستيلاء على املاكهم، (وكان الملك العادل يؤثر مسير الملك العزيز ليتمكن من أغراضه، ولان العساكر مع اختلافها تجتمع مع الملك العزيز لعلو همته، وسمو قدره، وسماحة يده، وسعة صدره)^(٥).

ومها يكن من امر بعد ان تجمع العساكر في بركة الجب سار الملك العزيز والملك العادل الى دمشق وفرضوا عليها الحصار، ثم استمالوا احد امراء الملك الأفضل ويدعى العزيز بن ابي غالب الحمصي ووعدهم ان يفتح لهما الباب، ويدخل العساكر الى دمشق، ففتحه عصر يوم السابع والعشرين من رجب ودخل الملك العادل منه، ولم يشعر الملك الأفضل الا وعمه داخل دمشق^(٦)، وعند رأى الملك الأفضل ان دمشق خرجت من يده خرج الى أخيه واجتمع به، واتفقوا على ان يسلم الملك الأفضل دمشق وجميع اعمالها ويخرج الى صرخد^(٧)، وكان الملك العزيز والملك العادل اتفقوا ان يقيم الملك العزيز في دمشق ويكون الملك العادل نائباً عنه في مصر، فلما استولى الملك العزيز على دمشق ندم على ما اتفق عليه مع عمه الملك العادل، وارسل الى

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٥؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٧، ص١٣٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٧١.

(٢) بركة الجب هي بظاهر القاهرة من بحريها، تسميها العامة بركة الحاج لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج في كل سنة، ونزولهم عند العود بها، ومنها يدخلون إلى القاهرة. المقريزي، أبو العباس تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر (ت: ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمي، بيروت، ١٤١٨هـ، ج٢، ص٤٣٤.

(٣) ابن العديم، ابي القاسم كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل المنصوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٤٣٣؛ ابن واصل، مفرج الكرب، ج٣، ص٥٧.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ص٤٣٣؛ ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص٤.

(٥) ابن واصل، مفرج الكرب، ج٣، ص٥٨.

(٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٦٠؛ ابن نظيف الحموي، التاريخ المنصوري، ص٤.

(٧) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٦١.

أخيه الملك الأفضل يعتذر اليه، وقال له: ((إذا طالبناك فاثبت على الامتناع، ولا تبذل الرضى لنا إلا بإقامة الخطبة والسكة، ولا تنزل عن ربتك، فإني أقصد لك الرضا وأفعل ما تريد، ويكون امتناعك عذرا عند عمي))^(١)، وعلى أي حال سلم الملك العزيز دمشق الى عمه العادل وارتحل الى مصر^(٢)

رابعاً: محاولة الملك الأفضل استرجاع دمشق من الملك العادل:

بعد وفاة الملك العزيز عثمان صاحب مصر تولى حكم بعده ابنه ناصر الدين محمد وهو لا يزال طفل صغير، واتفق امراء الصلاحية والاسدية على استدعاء الملك الأفضل لكون اتابكياً له باعتباره احد ملوك الاسرة الايوبية وعم للملك الصغير^(٣)، وكانت الصلاحية على عدا مع الملك الأفضل فكتبوا الى من كان من اصحابهم في دمشق وقالوا لهم: (لقد اتفقت الاسدية على الأفضل، وان ملك حكموا علينا، فامنعوه من المجيء)، فخرجت الصلاحية لاعتراض الملك الأفضل ومنعه من الوصول الى مصر^(٤)، وسار متخفياً في تسعة عشر رجلاً، خوفاً من أصحاب الملك العادل، لان مدن الشام كانت تحت حكم الملك العادل حتى تمكن من دخول القاهرة في السابع ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م^(٥).

بعد ان ملك الملك الأفضل مصر واستقر بها، واجتمع كلمة الامراء عليه، ارسل اليه أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب وابن عمه اسد الدين شيركوه بن محمد صاحب حمص يحثانه على اغتنام فرصة غياب الملك العادل عن دمشق وانشغاله بحار ماردین^(٦)، وامره بالخروج

(١) ابي شامة، الروضتين، ج٤، ص٤٣١؛ ابن واصل، مفرج الكرب، ج٣، ص٦٦.

(٢) ابن واصل، مفرج الكرب، ج٣، ص٦٨؛ أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص٩٢.

(٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٦٩؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ص٤٣٧؛ النويري، نهاية الارب، ج٢٨، ص٣٠٦.

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٦٩؛ بن تغريدي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب العلمي، مصر، د-ت، ج٦، ص١٤٦.

(٥) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧٠؛ ابي شامة، الروضتين، ج٤، ص٤٤٦-٤٤٧.

(٦) ماردین، قلعة مشهورة على قلة جبل بالجزيرة، ليس على وجه الأرض قلعة أحسن منها ولا أحكم ولا أعظم، وهي مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وامامها رضى عظيم فيه أسواق وفنادق ومدارس وربط. وضعها وضع عجيب ليس في شيء من البلدان مثلها، وذلك أن دورهم كالدرج كل دار فوق أخرى، وكل درب منها مشرف على ما تحته، وعندهم عيون قليلة، جل شربهم من الصهاريج المعدة في دورهم. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت: ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م)، اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، ص٢٥٩.

لاستعادتها وقدموا له المساعدة بالمال والرجال والنفوس، وخرج من القاهرة قاصداً دمشق، فبلغ الملك العادل مسيره الى دمشق فترك على حصار ماردين ابنه الملك الكامل وعاد مسرعاً الى دمشق ودخلها قبل نزول الملك الأفضل عليها بيومين^(١)، ثم نزل الملك الأفضل على دمشق وفرض عليها الحصار، وقطعوا اشجارها ومياهها الداخلة اليها، كما انقطعت الميرة على أهلها وضجوا، واستمر الحصار قرابة العشرة اشهر حتى سنة (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) وهم الملك العادل على تسليم دمشق الى الملك الأفضل والملك الظاهر^(٢)، ثم ارسل الملك العادل الى ابنه الملك الكامل يستدعه الحضور الى دمشق لمساعدته، وعندما وصل الملك الكامل بالأموال والجيوش اطمأن الملك العادل واستقر امره^(٣)، اما جيوش المحاصرة لمدينة دمشق فأنها رحلت عن دمشق واقاموا في حوران ثم رحلوا الى رأس الماء، ثم ضعفت عزائمهم بسبب برودة الجو واتفقوا على العودة كل الى بلاده^(٤).

وقيل ان سبب رحيلهما ان الملك العادل ارسل الملك الظاهر يقول: (أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان، وتكون دمشق لك لا للأفضل. فطمع الظاهر، وأرسل إلى الأفضل يقول: أنت صاحب مصر، فأثرتي بدمشق. فقال: دمشق لي من أبي، وإنما أخذت مني غصبا، فلا أعطيها لأحد، فوقع الخلف بينهما)^(٥)، ويقول الذهبي: (ثم لم يزل يراوغهم ويلقي بينهم حتى دحاهم، وتمكن واستولى على ممالك أخيه، وأبعد الأفضل إلى سميساط^(٦)، وودع الظاهر وكاسر عنه لكون بنته زوجته، وبعث على اليمن حفيده المسعود أطسز ابن الكامل، وناب عنه بميفارقين

- (١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧٠؛ أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص٩٥.
(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٨٦؛ الحنبلي، شفاء القلوب، ص٢٠٥.
(٣) الدوادري، كنز الدرر، ج٧، ص١٤٠.
(٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧١؛ ابي شامة، الروضتين، ج٤، ص٤٥٣-٤٥٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص١٠٥.
(٥) سبط ابن الجوزي، مراة الزمان، ج٢٢، ص٧١؛ ابي شامة الروضتين، ج٤، ص٤٥١.
(٦) سميساط، مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن، ومالكها في هذا الزمان الملك الأفضل علي بن الملك الناصر يوسف بن أيوب صلاح الدين، الاضطخري، المسالك والممالك، ص٦٢؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢٥٨.

ابنه الأوحده^(١) ^(٢).

خامساً: انتزاع الملك العادل حكم مصر من الملك الأفضل.

بعد فشل الملك الأفضل دخول دمشق قفل راجعا الى مصر، وارسل خلفه عمه الملك العادل يقول له: (تفرق، فإننا لك مثل الوالد، وعندني كل ما تريد. فقال للعادل: قل له: إن صح ما قلت فأبعد عنك أعدائي الصلاحية) وعند وصول الخبر الى الصلاحية قالوا للملك العادل: ايش قودنا؟ قم بنا، فساروا خلف الملك الأفضل^(٣)، وكان الملك الأفضل قد جد في مسيره حتى دخل القاهرة^(٤)، وصلت الانباء الى الملك الأفضل ان عمه الملك العادل خرج من دمشق قاصداً مصر ومعه المماليك الناصرية، وكانت عساكر الملك الافضل في مصر قد تفرقت عنه، وسار كل منهم الى اقطاعاته، وقد حاول الملك الأفضل جمعهم، فلم يجتمع منهم الا القلة القليلة لتشتتهم في الأماكن التي يقيمون فيها عساكرهم^(٥).

ومهما يكن من امر خرج الملك الأفضل من القاهرة للقاء الملك العادل فالتقيا في الصلاحية^(٦)، ووقع القتال فهزم الملك الأفضل ونكسر عسكره وولوا منهزمين لا يلون على شيء حتى دخلوا القاهرة واغلقوا أبواب المدينة^(٧)، ونزل الملك العادل البركة وتدخل سيف الدين ازكش لإصلاح الامر بين الملك العادل والملك الأفضل، فانفقوا ان يعطي الملك العادل ميافارقين وجبل جور^(٨)

(١) ميافارقين، أشهر مدينة بديار بكر سميت بميا بنت لأنها أول من بناها، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارجين، لأنها كانت أحسن خندقها فسميت بذلك، وقيل: ما بني منها بالحجارة فهو بناء أنوشروان بن قباد وما بني بالآجر فهو بناء أبرويز، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت: ١٧٤٨هـ / ١٣٧٤م)، سير اعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف، محيي هلال السرحان، اشراف شعيب الارناؤوط، ط ٣، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ج ٢٢، ص ١١٧.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢٢، ص ٨١؛ الحنبلي، شفاء القلوب في اخبار بني أيوب، ص ٢٠٨.

(٤) الدواداري، كنز الدرر، ج ٧، ص ١٤١.

(٥) ابن الاثير، الكامل، ج ١٢، ص ٧٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٠٨.

(٦) الصلاحية. مدينة واقعة على احد فروع نهر النيل من جهة البحر، وهي كثيرة الخيرات، وتصنع بها السفن، ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٨٠.

(٧) ابي شامة الروضتين، ج ٤، ص ٤٥٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٠٨؛ الدواداري، كنز الدرر، ج ٧، ص ١٤١.

(٨) جبل جور، بالجيم المضمومة، وسكون الواو، وراء: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية، أهلها نصارى أرمن، وفيها قلاع وقرى، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠٢.

وديار بكر، ويأخذ منه مصر^(١)، ودخل الملك العادل مصر واستقر بدار السلطنة، وخرج الملك الأفضل الى الشام مكرهاً ليلة السابع عشر ربيع الاخر^(٢)، ولما ثبت الملك العادل اقدامه بمصر قطع الخطبة للملك المنصور^(٣)، وقال: (إنه قبيح بي أن أكون أتابكا لصبي مع الشيخوخة والتقدم، مع أن الملك ليس هو بالميراث، وإنما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر رحمه الله صاحب الأمر، غير أني تركت ذلك إكراما لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج الملك من يدي ويد أولاد أخي، فمشيت الأمر إلى آخره، فلم أر الأمر يصلح إلا بقيامي فيه، ونهوضي بأعبائه، ولما ملكت هذا البلد وطنت نفسي على القيام بأتابكية هذا الصبي حتى يبلغ أشده، فرأيت العصبيات غير مقلعة، والفتن ليست زائلة، فخشيت أن يطراً على ما طراً على الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة آخر، وما أعلم ما يكون عاقبة ذلك، وأنا أرى أن هذا الصبي يمضي إلى الكتاب، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه؛ فإذا بلغ أشده نظرت في أمره وقمت بمصالحه^(٤).

- (١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧٧؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٢٢، ص٨١.
 (٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧٧؛ ابي شامة، الروضتين، ج٤، ص٤٥٦.
 (٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٧٧.
 (٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣، ص١١١.

الخاتمة

١- اتسمت السياسة التي اتبعها الملك العادل اتجاه أبناء أخيه السلطان صلاح الدين بسياسة فرق تسد من اجل الاستيلاء على جميع أملاك أخيه والوصول الى سلطنة الدولة الايوبية، اذ ان الملك العادل لم يكن راضياً عن نصيبه من ارث الدولة الايوبية مع الدور الذي اداه في خدمة الدولة.

٢- لم تكن علاقة الملك العادل بأبناء اخية السلطان الناصر صلاح الدين مبنية على أسس التعاون الحقيقي للحفاظ على أملاك أخيه من العدوان الداخلي والخارجي، وانما سعى جاهدا الى انتزاع هذا الإرث منهم والانفراد به له ولأبنائه من بعده.

٣- اظهر الملك العادل سياسة محنكة في كل خلاف يحصل بين أبناء صلاح الدين من خلال ما اظهره من مواقف تدل على انه يعمل على توحيد الجهود والمحافظة على وحدة الدولة الايوبية وهيبتها، ولكن الحقيقة الامر كان يعمل على بذر بذور التفرقة والتناحر بين الأخوة في الباطن، لإبقائهم ضعفاء امامه، ومن ثم الاستيلاء على جميع املاكهم.
قائمة المصادر:

١- ابن الاثير، ابي الحسن عزالدين علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، راجعه وقدم له واتم شروحه: سمير شمس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٩م.

٢- البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبد العزيز بن محمد (ت: ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م.

٣- بن تغريدي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب العلمي، مصر، د-ت.

٤- الحنبلي، احمد بن إبراهيم بن نصر الله (ت: ٨٧٦هـ / ١٤٧١م)، شفاء القلوب في اخبار بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م.

٥- الدواداري، ابي بكر بن عبدالله بن ابيك (ت: ٧٣٦هـ / ١٤٣٢م)، كنز الدرر وجامع الغرر، الدر المطلوب في اخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، د-ت.

٦- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت: ٧٤٨هـ / ١٣٧٤م)، سير اعلام

- النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف، محيي هلال السرحان، اشرف شعيب الارناؤوط، ط ٣، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٧- سبط ابن الجوزي، ابي المظفر شمس الدين يوسف بن قز اوغلي بن عبدالله (ت: ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تواريخ الاعيان، تحقيق: إبراهيم الزبيقي، الرسالة العالمية، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.
- ٨- ابي شامة، شهاب الدين عبدالرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت: ٦٦٥هـ / ١١٦٩م)، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، حققه وعلق عليه: إبراهيم الزبيقي، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨ / ١٩٩٧م.
- ٩- ابن العديم، ابي القاسم كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله (ت: ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل المنصوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
- ١٠- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت: ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م)، اثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
- ١١- ابن كثير، ابي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م)، البداية والنهاية، تحقيق: عبد بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، ١٤٢٠هـ.
- ١٢- المقرئ، أبو العباس تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر (ت: ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمي، بيروت، ١٤١٨هـ.
- ١٣- ابن نظيف الحموي، محمد بن علي بن نصيف (ت: ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م)، التاريخ المنصوري: المسمى الكشف والبيان في حوادث الزمان، يعني بنشره وتحقيقه: أبو العبد دودو، مراجعة: عدنان درويش، مطبعة الحجازي، دمشق، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ١٤- النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم (ت: ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م)، نهاية الارب في فنون الادب، تحقيق: نجيب مصطفى، حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.
- ١٥- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم بن نصرالله بن سالم (ت: ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)، مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، د-ت.
- ١٦- ياقوت الحموي، أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ط ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

